المساواة

(٦)

الاشتراكية الثورية

خرجت الاشتراكية الثورية من دماغ ماركس كتاباً بين سطوره بقعُ الدماء ولهب الحرائق ونار المقذوفات — كما خرجت بالاس اثينا الهة الحرب والحكمة فادة مدججة بالسلاح من دماغ أبيها جوبتر اله الآلهة . ذلك الكتاب المدعو « رأس المال » Das Kapital هو انجيل الاشتراكية الحديثة ولم يبدعهُ مؤلفهُ إبداعاً بل استخرج أهم عناصره من الفلسفة الالمانية ومن الاشتراكية الفرنساوية يضاف اليها تأثير الجمعية الشيوعية البركسلية السرية التي كان ماركس هو ورفيقهُ انجلس ينتميان اليها بعد إبعادهِ من باريس ، والى الجمعية الديمقراطية الدولية العامة . فضلاً عن كتابات الاقتصاديين الانجليز وتطوُّر حركة العمال في انجلترا التي ابتدت بتأثير روبرت أون (Owen) مؤسس الاشتراكية الانجليزية وهو الذي كرَّس ثروتهُ البالغة اثني عشر مليوناً لتحقيق نظرياتهِ

ماذا يبغي ماركس واصدقاؤهُ انجلز ولاسال ووتيلنج وغيرهم المنادون بالجمهورية الاشتراكية ، الموجدون بين الطبقات حرباً ما فتئت تذكيها بلاغتهم النارية والتي ستفضي حتماً الى زلازل اجتماعية فظيعة ؟ ما هي غايتهم من الغاء فروق الوطنيات ، ومحو حدود البلدان وتكوين اتحاد العمال في جميع الاقطار ؟

الاقتصاد دولابٌ تدور بهِ آلة الحياة الاجتماعية بفروعها ومظاهرها المختلفة. وليس الاقتصاد هنا ليعني التوفير ولكنهم يريدون بهِ حسب الاصطلاح الحديث طريقة الانتاج والتبادل . ينتج المرء ما يستطيع انتاجهُ ليبدلهُ بما يحتاج اليهِ من ضروري ويصبو اليهِ من كماليّ ، فيتمكن بعدئذٍ من الاستمرار على الانتاج في نوع العمل الذي يجيدهُ . ولقد كان التبادل يحصل مباشرةً بلا وسيط في الجمعيات الاولى ، غير ان تقدُّم الحضارة جعل المال من الاهمية بحيث أصبح واسطة التبادل الوحيدة التي يستحيل بدونها الحصول حتى على لزوم الضروريات . وتفنن الناس في حشدهِ لاسيما عن طريق الصناعة التي ارتقت آلاتها ارتقاء عظيماً ، واستولى

أهل رأس المال على منابع الانتاج فصاروا لا همّ لهم سوى سرعة الانتاج والانتاج بأبخس الاثمان لتزايد الثروة بالارباح السريعة . والشرطان متوفران في استخدام الآلات . فغدا العامل بذلك مرغماً على قبول احد اثنين : فاما الموت جوعاً لضيق ذات اليد ، واما العمل بأقسى الشروط ليعيش عيشة كلها كدٌّ وحرمان وظلام

لقد مرّت الامم والجماهير في قرون العبودية فلم يبق منها على الارض غير آثار الملكية والارستقراطية ، حتى هبَّ الشعب في الثورة الفرنساوية يطالب بالمساواة مفاجئاً المستأثرين بالسيف والنار . وابرز نابوليون الديكتاتور يلقي بذور الثورة اينما حلَّ ويوسع من دوائر الحرية ما وافق انبساط شوكته . فبلهُ لم يكن يحارب الاَّ الاشراف ، ولم يكن يدخل البلاط الاَّ الاشراف ، ولم يكن يرشّح لمناصب الرفيعة الاَّ الاشراف . فرفع الصغار من ذوي الكفاءة الى اعلى الدرجات ، وجعل من ذوي البسالة والمهارة الحربية مارشالية وقواداً عظاماً ، وخلق القاب الشرف للمتازين بمواهبهم الطبيعية ، فشعرت الامة بما فيها طبقة العمال بأن الحرية السياسية التي اعترف لها بها سنة ١٧٨٩ متحققة

بيد انّ النظام الدمقراطي قصر على تعريف المساواة بين الطبقات والافراد في الحقوق وامام القضاء ، ونادى بالحرية النظرية التي تحرّم الاستعباد النظامي على ما كانت ترضاهُ القوانين البائرة . ولكنهُ نسي انّ هناك عبودية اقتصادية اشد هولاً من اية عبودية سياسية . وماذا عسى تنفعُ الحرية السياسية من ليس لديهِ ما يؤهلهُ للتمتع بها ؟ عبودية الامس ضمنت لهُ الغذاء والسكن والكساء ، اما حرية اليوم فافقدتهُ هذا الضمان ولم تملهُ ما يوازيهِ من الضروريات . ليتفلسف الكلاميون ما شاءوا — ان قيمة المرء الاجتماعية والسياسية توازي قيمتهُ الاقتصادية أي ما يملكهُ من مصادر الثروة . ان الذي لا شيء عندهُ عبدٌ لمن عندهُ شيء . وهو يواصل العمل ساعات طويلة ويفني قواهُ في الكدّ والاجهاد ، فلماذا يبقى عبداً ؟

يبقى عبداً لان الحكومة اهتمت الى اليوم بالانتاج واهملت التوزيع . وما كان العيب في قلة الانتاج فهو موفور ، الاَّ ان سوء التوزيع يمنحُ قوماً فيصبحون موالي ، ويحرم قوماً فيمسون عبيداً . اولئك يتنعمون ولا يعملون ، وهؤلاء

يبذلون حياتهم في العمل بلا امل ولا عزاء . لذلك أشهر الاشتراكيون الحرب على جميع القوانين السارية ليبلوا الذين حرّرتهم السياسة في ثورة الامس الحرية الاقتصادية في ثورة اليوم بالتوزيع على الجميع سواء . فالتوزيع إذن قلبُ قلبِ النظام الاشتراكي وغاية غايتهِ . ولما كان توزيع نتاج العمل ذاتهِ غير مفيد لمنتجهِ في كلّ الاحوال فقد يسروا التبادل على قاعدة ما سماهُ ماركس «الوقت الاجتماعي» ، أي عدد الساعات المستهلكة لانجاز العمل . وحذفوا المال واسطة الاحتكار والاستغلال وعامل الطغيان الاكبر ، على ما يرون . وقضوا على الثروات الفردية وما ينتج عنها من مصارف ، وشركات مالية ، وصناديق توفير ، وبورصات الخ ليوحدوا الثروة في يد الحكومة أو المجتمع . وشعارهم هو هذا « لكلّ ما يخصهُ ولكلّ نتيجة عملهِ » . ولكنهم علموا أن مثل هذه المساعي لا تنجح في بلدٍ واحد أكثر من نجاح وقتيّ وانهُ لا تلبث الحكومات الاخرى ان تتألب على الحكومة الاشتراكية فتقضي على انظمتها وتطارد مؤيديها حتى الهلاك . ولهذا قرّروا نشر دعوتها في جميع انحاء المعمور لتتمّ بها تلك الثورة الدولية الكبرى والانقلاب العام العظيم الذي تنبأ عنهُ كروبتكن الروسيّ منذ اكثر من ثلاثين عاماً . فقاموا ينادون باستقلال الشعوب وحريتها في تقرير مصيرها . وما هذا الاعتراف الا تمهيد للاتحاد العالمي الشامل تحت راية الشيوعية المطلقة

***

أما الواسطة لبلوغ هذه الغاية فهي القوة . لانهم يرون ان النظام الحالي يحول دون الاصلاح المراد بمحافظتهِ على الحقوق الفردية وتأييده امتيازات اصحاب المال والعقار الذين يملأون خزائنهُ بالضرائب . والانانية الحيوية تدفع هؤلاء وذاك الى الاحتفاظ بممتلكاتهم بكل ما لديهم من وسيلة . فالقوة وحدها تتغلب عليهم . ولتنظيم هذه القوة أنشئت شركات التضامن ونقابات التعاون فهي تدافع عن حقوق العمال في الحاضر حتى اذا آن الاوان قاموا بالحركات الثورية المطلوبة . وقد رأى ماركس انهُ لا بأس بالديكتاتورية لتحويل هذا الانقلاب الواسع ما يحتاج اليهِ من الشدة والاتقان ، بل رأى انهُ يتحتم حصر الامر والنهي في يد زعيم مطلق . ولا شك ان ماركس استنبط المنصب الديكتاتوري لموافقتهِ لفطرتهِ

وسكانته لانهُ كان ديكتاتور الاشتراكيين يوم اسس الانترناسيونال(١) الاولى ، وانهُ انفضَّ اشياعهُ يومئذٍ من حولهِ لمقالاتهِ في الاستئثار والطغيان

وبين الناس اليوم شعور قويٌّ بان اليهود هم الذين ابتدعوا الاشتراكية وما والاها انتقاماً من الشعوب والاجناس والاديان التي حملت عليهم واضطهدتهم على كرّ عشرين قرناً لم يكن لهم فيها حرية ولا وطن ولا كيان ، وسعياً لنشر سلطانهم على العالم . فعملوا في تأسيس الانترنسيونال التي سميت المؤتمر الدولي الاحمر ، واقاموا ازاءها في فينا تحالف المموّلين الذي دعي المؤتمر الدولي الذهبي — ذلك ليقبضوا على ناصيتي القوة في المعمور : وفرة العدد ورأس المال . ويستشهد الناس على صحة شعورهم بأن كبار زعماء البلشفية من اليهود ، كما ان كبار المموّلين في العالم يهود يمدّون البلشفية بكل وسائل المساعدة السرية بقصد ابتزاز المال ايضاً ، لان الثورة العامة مضاربة مالية وسياسية فيجاء تروّج سوقها الصحافة العالمية بلهجات متناقضة — وزعماء الصحافة يهود كذلك

فيدافع اليهود عن تهومهم قائلين ان رئيس الشركة الصحافية الكبرى المستر استون ليس يهودياً ، وان « شركة الانباء البرقية الاميركية » ليست اسرائيلية . وان مستر هرست صاحب سلسلة الصحف والمجلات ليس يهودياً . وان اللورد نورثكليف قطب أقطاب الصحافة البريطانية ليس يهودياً ، ومثلهُ صاحبا « الشيكاغو تريبيون » وغيرهما كثيرون . واذا كان هناك مموّلون من اليهود فماذا لا يذكر حيالهم روكفلر ومورغن وريان ودوبون وهنري فورد وويرهاوز ، و٢٥ الفاً سواهم من الاميركان اصحاب الملايين الذين ليسوا يهوداً ؟ واذا كان بعض زعماء البلشفية يهوداً فالوف من صغار تجار اليهود نقضوا اموالهم ولاقوا حتفهم في الثورة الروسية بعد ما ذاقوهُ في عصر القيصرية من الاهانة والعذاب والتجرد من الحقوق السياسية والقضائية . فان هم ثاروا فانما فعلوا كرتبة اجتماعية وليس كطائفة دينية . واذا كان تروتسكي وسفرولوف

(١) اذا جاز الكلام في الاصطلاحات اللغوية خلال هذا البحث العمراني قلت ان من الكتاب من يسمي الانترنسيونال مؤتمر العمال الدولي وغير ذلك . وهو اسم قد لا يفي بالمراد تماماً فضلاً عن طوله . فنعتمد لا تقبل كلمة انترناسيونال بنائها ما دامت مقبولة في جميع اللغات المعروفة ولفظتها الواحدة في انطلوب منها دون غيرها ونصيغ منها عندئذٍ نعوت « القوانين الانترنسيونالية » الخ

وغيرها من البلشفين يهوداً فليس في لنين وميسرين وكراسين وكالينين قطرة دم اسرائيلي . واكثر قادة المنشفيك ، اعداء البلشفيك الالداء، يهود .ومثلهم زعماء الديمقراطية الدستورية المنافسة حكومة السوفيت.وان البلشفين يكرهون اليهود لانهم ينظرون كمحافظين على النظام الرسمالي . وان اليهود محبون للقانون وهم في البلاد اللاتينية ، حيث تراعى شروط الحرية الدينية ، اقرب الناس الى حفظ النظام واشدهم تعلقاً بالعائلة والفردية والملكية

ولقد ذكرتُ هـذا الاتهام والدفاع لانهُ نقطة ذات اهمية خاصة في هذا الاضطراب الشامل ، ليس استجلاؤها بالممكن في الحاضر ولن يكشف اسرارها الاّ المستقبل

***

بينما كانت دول الحلفاء تقوم في وجه دول الوسط هاتفةً باسم الديمقراطيـة والحرية قال الكونت اوكوما احد كبار ساسة اليابان ان المدنية الاوربية التي يزعم الحلفاء الدفاع عنها آخذة في التهدُّم والانهيار تحت معاول الاشتراكية . نعم ، العالم اليوم يرى انتهاء طور وابتداء طور آخر . وقد قامت الديمقراطية المتطرفة تكتسح الديمقراطية المعتدلة التي لم يطل عمرها اكثر من قرن بعد قرون الملكية لان الامم نضجت بسرعة في هذا العصر ، ولا شك ان سرعة النضج ستتزايد في عصور يعيش فيها اللاحقون بنا

لا بدّ ان تزول حضارة اليوم كما زالت كل حضارة سبقتها ،ولا بدّ ان يحوّر النظام الحاضر كما حوّر كل نظام قبلهُ .وها ان ظل الاشتراكية يمتد فوق هذا الجيل حتى لنجد آثارها حولنا اني نظرنا فكّرنا . لقد انتشرت شركات التعاون في كل مكان حتى في أقاصي اليابان،وهبت الشعوب تتسابق في الانتاج الصناعي وفي التهذيب الفكري جميعاً.واعترت الاجناس لعاطفة الكرامة القومية فعقد حتى زنوج افريقيا مؤتمراً في لوندرا قرروا فيهِ المطالبة بما تطالب بهِ ارق امم الجنس الابيض من سيادة قومية واستقلال . ولقد كثرت جيوش العمال العاطلين في الشرق والغرب ، وتعددت فتن الشيوعيين يهاجمون صرح الحضارة بفؤوس الثورة والعصيان.ومهما بالغ النظام الحالي في الترميم فالبناء متداع سيسقط في مستقبل قريب او بعيد لان الاشتراكية انطلقت الى اعماق النفوس واستقرّت فيها منها المطامع والامال

يا للمطامع والآمال المتشابهة في قلب الانسان عند كل انقلاب وكل تحوّل يأتينا النظريون بالاصلاحات المنمقة والدساتير المزركشة مستشهدين بالعلم والفلسفة والتاريخ وضامنين لنا بتنفيذ قوانينهم عصراً ذهبياً يدرّ على العباد لبناً وعسلاً وهناء . ولكن هذا التاريخ وهذه الفلسفة وهذا العلم الذي يتهورون باسمه انيابنا ويلطفون آلامنا هو هو الذي ينقض وعودهم وينكر تحقيقها . ان في «المادية التاريخية» التي يستند اليها ماركس اكبر مكذّب لاماني الاشتراكية لانها ان صدقت من حيث ظهور المرتبة الضرورية للاجتماع على المراتب الاخرى فهي كذلك تثبت ، بلا اثبات ، وجود التفاوت الملاصق للانسانية في جميع تطوّراتها

ان تقسيم العمل ملازم لانواع العمل ولدرجة عقول الناس ودرجة كفاءتهم ، وهذا التقسيم المحترم هو الذي يخلق المراتب المختلفة . لذلك كان هذا المذهب القائل بالمساواة اظلم ملحق لها ، وكان هذا المذهب الداعي الى الانصاف اشدّ الطغاة طغياناً . وهل المساواة في سبك المسجد والطين في قالب واحد ؟ وهل الانصاف في ان يجرّد الغني ليعطي المعدم ؟ وهل الحرية في ان يوحّد العقل الكبير والقلب النبيل مع الفكر السخيف والنفس الزحافة ؟ وهل يقوم حسن التوزيع باستبدال صك بصكّ وعهد بعهد ؟ وما هي لوائح « الوقت الاجتماع » التي سيبدل كلٌّ بواسطتها نتيجة عمله — ما هي الا شكل جديد من الاوراق المالية ؟ ومن هم اولئك الموزّعون ؟ اهم ملائكة فالملائكة سقطوا . اهم آلهة لتعلن لنا نزاهتهم وعدالتهم ؟ وان كانوا على تلك الفضائل فكيف ينظرون الى ماركوني مثلاً والى الخامل الذي يتطفل على الناس ليسكر ويسمن — بعين واحدة ؟ ولو فعلوا فسوّوا بين النسر والضفدع أفلا تكون هذه المساواة اعظم خيانة لارقى صفات الانسان واسخف ظلم لما هو فخر الانسانية وشرفها

يقولون ان الشيوعية لم تنجح في الروسيا لان الشعب ليس على رقيّ . التاريخ وراءكم ايها الفلاسفة الكلاميون . التاريخ الفاشي والوراثة القاهرة . وهل الشعب فرد واحد ليرتقي كله على نمط واحد وفي درجة واحدة ؟ ولماذا لم يتطور على هذه الصورة في عصور الملكية وما تلاها ؟ ألانهُ لم يتعلم ؟ وهل كلٌّ من يتعلم يعلم ؟ وهل كلٌّ من يدرس يحفظ ؟ وهل كلٌّ من يحفظ يحسن التصرّف بما لديه ؟ اذاً ماذا تفعلون بالفروق الشخصية ماذا تفعلون بوجوه العقول ووجوه الاستعدادات ،

ووجوه الملكات التي لا تقلّ عن وجوه الاجساد اختلافاً ؟ لماذا لستم جميعاً مثل لنين وكروبتكن وماركس ولاسال، حتى انتم الاذكياء المتعلّمون المخلصون ؟ وماذا تفعلون بالاجسام العليلة التساوون بينها وبين الصحيحة ؟ وماذا تفعلون بالاعضاء البتراء اتقولون ان الفردية تفت وجودها ؟

إن اكبر ما تعاب به الاشتراكية المتطرّفة هو تفخ الخامل والكسول والجبان وايهامهم انهم في الدنيا الكل في الكل ، والقضاء على تلك المكرمات الانسانية وتلك الصفات النبيلة ، صفات القناعة والنزاهة والخضوع والرقة والتهيب امام الاشياء العظيمة الجليلة التي هي أعز ارث في متحف العصور ، والمناداة بصلاح ما يناقضها . المخلصون من دعاة هذا المذهب ينسبون خمول الخامل وكسل الكسول وجبن الجبان الى جهله وعدم اعطائه وسائل التقدم لينهض من دركته الفكرية والاخلاقية . وقد تصحّ هذه في بعض الافراد . ولكن ماذا تقول في الذين هم على هذا الانحطاط المعنوي والحسي رغم علمهم أو توفر اسباب العلم لهم ، ورغم وجاهتهم وعظمتهم الاجتماعية . ؟ ان الذل الاخلاقي موجود بين الملوك وجوده بين الصعاليك فاذا تفعل المساواة في ذلك ؟ نعم ان عيوب الاجتماع كثيرة ، نعم ان الاوجاع الحالية مريرة ولكن الدواء سيكون امرّ والاصلاح اوجع ، لانهُ سيظلم كثيرين من الابرياء ويقضي على جمال كثير . غير اني من الذين يثقون بالمستقبل أيّاً كانت أغلاط الحاضر لان التحوّل رائد الكون

الغد للاشتراكية بلا ريب ولكنها ستغلب على امرها بعد ان تنيل الاجتماع ما تستطيع ان تأتي بهِ من التعديل . الغد للاشتراكية ولكنها لن تكون أوفى من الديمقراطية في وفاء وعودها . الغد للاشتراكية ولكن من بين الطبقات المتساوية بالمساواة الجديدة ستنهض فئة فتعلو وتطغو على الطبقات الاخرى طبقة استقراطية المستقبل التي ستخلقها الكفاءة الشخصية وتقسيم العمل المحتم اليوم والامس وفي الغد . الغد للاشتراكية ولكن الفردية ستظل منتصبةً قربها على الدوام . الغد للاشتراكية ولكن ما بعد الغد لنظام آخر سوف ينبثق من قلب الاشتراكية التي هي مذهب انساني فهي بذلك خاضعة لطبيعة الانسان تملأها الحسنات والسيئات ويستحيل فيها الكمال — الاّ اذا ظلّ لها مثلاً أعلى تتبعهُ ويظلّ هارباً امامها الى منتهى الدهور

(مي)